كيف تتجلى التجريبية عند إبراهيم مصطفى؟ تتمثل التجريبية أو ضعف الأسس النظرية عنده في مستويين نفصل بينهما فصلا منهجيا لوضوح العرض وإن كانا شديدي الترابط والتشابك في كتابه: أمّا المستوى الأوّل فيتعلّق بتصوره للعلم عموما وأمّا الثاني فيتعلّق ببعض المنطلقات أو البديهيات التي تتعلق بعلم اللغة في خصوصه. ونحن نستشف مادة هذين العنصرين عندما نحلل خلفيات ما نقد به التراث ونستنتج ما تفترضه سواء وعى صاحبها بها أم لا.

3. 1. 1 – غياب تصور واضح للعلم

وقد رأينا أن كثيرا من الأخطاء في نقد التراث النحوي يعود إلى تصور خاطئ للعلم في نقطتين أساسيّتين:

أما النقطة الأولى فتتعلّق بعدم تمييز الباحث بين مقتضيات البحوث النظرية والبحوث التطبيقية وهما وجهتان من البحث مختلفتان متباينتان على الرغم ممّا يبدو في الظاهر من تمازج بينهما. وأهمّ ما ينبغي توضيحه أن الباحث عندما يدرس ظاهرة دراسة نظريّة خالصة، يجتهد في إيجاد الفرضيات الملائمة لتفسير تلك الظاهرة دون ربط مسبق على مستوى الممارسة العلمية بين هذه الفرضيات وبين التطبيقات العملية التي يمكن أن تنشأ عنها. ولذلك نجد كثيرا من الاكتشافات العلمية لا تجد إبّان اكتشافها تطبيقات عمليّة مباشرة. ومعنى ذلك أن البحوث التطبيقية تنطلق من حيث تنتهي البحوث النظرية ولا تتدخّل غاياتها وهواجسها ضمن صياغة البحوث النظرية وترتيب استدلالاتها ونسق حججها.

وقد بدا لنا هذا الخلط بين البحوث النظرية والتطبيقية في اتّخاذ إبراهيم مصطفى تبرّم الناشئة بالنحو وصعوبة تدريس العربية حجة على فساد لازم في النحو العربي أو عيب ضروري فيه. يقول: «أطمح أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربيّة وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة